الله ... والشعر

بقلم نزار قباني

الانسان (*) حيوان يقول شعراً. يتذوق شعراً.

هكذا يطيب لي ان اعرّف الانسان كما لم يعرف من قبل.

فكرة صغيرة أغامر وأضعها على الورق وتسمية جديدة أرجو أن تردّ للانسان بعض اعتباره الضائع وتضعه حيث يجب أن يكون.

أن نعرّف الانسان بأنه ناطق أو أنه ضاحك أو أنه اجتماعي، ابقاءٌ لهذا الانسان في مرحلته الترابية وتمييزه عن القطيع الحيواني ببعض الخصائص العضلية الفيزيولوجية فقط ككونه ينطق .. او يضحك .. أو يعيش في جماعة.

أما ان نربط حقيقة الانسان بالشعر. ونجعل الاثنين موضوعاً واحداً، فهو تصعيد بقضية الانسان وتجديد أكيد لهويته.

الانسان كائن يولّد شعراً. وبتعبير آخر كائن حريص على ان يعبّر عن ذاته تعبيراً ممتازاً، ان يقدّم نفسه في اطار نبيل..

المفتاح الى قلب الحبيبة — كل حبيبة — سواء أكانت سوداء تنبعث من بشرتها روائح المانغو .. ويختصر صدرها اليابس تمرد قارة ... طموح قارة ... أو واحدة من مواطنات جزر الهاواى المكتسيات حيناً باللاشيء .. وحيناً بصدفات البحر .. وأطواق زهرات الغاردينيا، او كانت سويدية شقراء من ماردات الشمال. المفتاح أغنية حب جميلة تقال عند شرفتهـا ..

الشعر هو كلمة السر .. من عرف متى يقولها وكيف يقولها استطاع أن يزحزح الصخرة المسحورة عن المغارة المسحورة ... ويصل الى صناديق اللؤلؤ والمرجان .. والى الحور المقصورات في الجنان. منذ ان دار هذا الكوكب المتحضر على نفسه كان الشعر. أي منذ ان امتدت يد أول انسان الى أول زهرة برية ليحملها الى الانثى التي كانت تنتظره في ملجئه الحجري وليقول لها: (لم اصطد اليوم شيئاً لطعامنا وانما حملت لك هذا الكائن الجميل الذي وجدته مختبئاً في شقوق صخرة .. انه يشبه انفتاح فمك يا حبيبتي ..).

هذه أول هدية جمال في تاريخ الهدايا .. أول حجر في بناء علم الاستيتيك، أول كلمة في اول ديوان شعر.

أكيد ان الانسان وحده يملك نزعة تذوق الجميل والتعبير عن هذا الجميل. فالحيوان لا يهتم بالنجوم، ولا يعنى بروعة الآصال ولازوردها السائل، ولا يلتفت الى الزهرة ولا يحملها الى مسكنه ولا يتزين بها، واذا اهتم بالزهرة فلكي يأكلها ويشرب عصيرها كما تفعل النحلة.

الى هذه النقطة اريد أن اصل لأوكد انفراد الانسان عن سواه من الكائنات الحية بالتذوق الذهني المجرد الخالص من كل نفع، أو بتعبير آخر بالقدرة على التفريق بين (الجميل) و (النافع). فهو بين أفراد فصيلته الوحيد الذي يقيم المتاحف وينحت الحجر ويطرّز جدران بيته بالرسوم ويملأ أوانيه بالورد ويتعبد الجميل لأنه جميل.

ان المقياس الوحيد لحضارة شعب هو قدرته على التطلع البريء الى جمالية الاشياء ومحافظته على الحياد الذهني. الشعب المتحضر لا يحتكر الجميل ولا يستغله.

اذن فانا ابشّر بالانسان الشعر .. انني لا اخترع هذا الانسان فهو هنا.. وهناك.. انه في كل واحد منكم .. هو مامي على كل هدب وشفة.

الانسان الرقم يا أصدقائي لم يستطع أن يزحزح الانسان الشعر. لاتصدقوا من يقول لكم ان الشعر أضاع قضيته

«حين اراد الله ان يتصل بالانسان ويقنعه بوجوده، لجأ الى الشعر .. توسّل الى نفسه بالحرف الجميل، بالنغم المسكوب، بالفاصلة الانيقة. كان بامكانه ان يقول له «كن مؤمناً بي .. فيكون» ولكنه لم يفعل. اختار الطريق الانبل، الطريق الاجمل. اختار الشعر ..»

(*) بهذه الكلمة قدم الشاعر لقراءة من اشعاره في أمسية اقيمت بالجامعة الاميركية في بيروت بدعوة من ندوة مجلة «شعر».

وانه انتهى . الشعر لا ينتهي الا اذا انتهت الحياة نفسها على هذا الكوكب الدائر .

أما مادام هناك مغارب تسفح العقيق وبحار تغزل الزرقة ، مادامت هناك نجوم تهرب من خيمتها لتشاركني مخدتي ؛ مادامت هناك عيون واسعة تمطر فيروزاً، وعيون تلتقط هذا الفيروز وتشكه في سلك من النغم فيروزة فيروزة ؛ مادامت هناك مشاوير لم تمش .. ومواعيد لم تعط ؛ مادام هناك رياح تثور ، وشموس تدور، ونجوم مفروطة عناقيد نور ؛ مادام الانسان السؤال منتصباً على هذه الارض يحب ويكره ، ويصلي ويسكر ، ويبكي ويبتهج ، ويؤمن ويكفر ، ويتمرد ويستسلم ، بل أقول مادام هناك عقد واحد في ادراج حبيبتي لم اكتشف لون حباته .. مادام في خزائنها ثوب واحد لم يره فضولي بعد .. فلا فرار من الشعر ، ولا انفلات من اصابعه الساحرة .

قلت لكم ان الشعر هو كلمة السر .. وأمامه تنفتح الابواب .. أبواب المدارك وابواب القلوب . وحين اراد الله أن يتصل بالانسان ويقنعه بوجوده لجأ الى الشعر .. توسل الى نفسه بالحرف الجميل .. بالنغم المسكوب .. بالفاصلة الأنيقة . كان بامكانه أن يقول له (كن مؤمناً بي .. فيكون) ولكنه لم يفعل . اختار الطريق الأنبل .. الطريق الأجمل . اختار الشعر .

« واذكر في الكتاب مريم اذ انتبذت من أهلها مكاناً شرقيا .

« فاتخذت من دونهم حجاباً فارسلنا اليها روحنا فتمثل لها بشراً سويا .

« قالت اني أعوذ بالرحمن منك ان كنت تقيا

« قال انما انا رسول ربك لأهب لك غلاماً ذكيا.

« قالت أنى يكون لي غلام ولم يمسسني بشر ولم أك بغيا .

« قال كذلك قال ربك هو علي هين ولنجعله أية للناس ورحمة وكان أمراً مقضيا .

« فحملته فانتبذت به مكاناً قصيا .

« فأجاءها المخاض الى جذع النخلة قالت ياليتني مت قبل هذا وكنت نسياً منسيا .

« فناداها من تحتها الا تحزني قد جعل ربك تحتك سريا .

« وهزي اليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنيا .

« فكلي واشربي وقري عينك فاما ترين من البشر احداً فقولي اني نذرت للرحمن صوماً فلن أكلم اليوم انسيا .

« فأتت به قومها تحمله قالوا يا مريم لقد جئت فريا .

« يا اخت هارون ما كان ابوك امرأ سوء وما كانت امك بغيا .

« فاشارت اليه قالوا كيف نكلم من كان في المهد صبيا .

« قال اني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبيا .

« وجعلني مباركاً اينما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة مادمت حيا .

« وبراً بوالدتي ولم يجعلني جباراً شقيا .

« والسلام علي يوم ولدت ويوم أموت ويوم ابعث حيا . »

هذه واحدة من قصائد الله. هل أدلكم على قصائد اخرى؟ اذن فافتحوا الاناجيل، افتحوا المزامير .. لتروا كيف تسيل حنجرة الله بالشعر .. لتروا كيف تشف الكلمة حتى لتكاد أن تطير . لتروا كيف يجلس الله على مسند حرف ..

والانسان ، هذه الكتلة المفكرة من الطين ، لم يجد أجدى من الشعر في التقرب من خالقه .. القصائد المحفورة على جدران المعابد في ذرى التيبت ، في مجاهل الصين .. في صوامع الاقصر .. في هياكل أثينا ، وفي اديرة الساحل الفينيقي . تشير الى قدرة الشعر على فتح أبواب السماء . لماذا نذهب الى بعيد .. ألم يكن أجدادنا في بوادي الحجاز يعلقون القصائد على جدران الكعبة على مستوى واحد مع اللات والعزى فيعبدون اللات مرة .. ويعبدون الشعر مرات ؟

الشعر يمد يده الى الاشياء الميتة فيحييها . كما فعل موسى تماماً . والفارق الوحيد ان اداة موسى هي العصا .. واداة الشعر هي القلم .

الحجارة في ارض الحجاز كانت تبقى حجارة لو لم يمسحها

الشعر العربي باناماله المنعشة .. فيكسو كل حجر غلالة شوق .. ويسقي كل ذرة رمل من حمرة جرح .. من شرايين موعد ..

ولقد مررت على ديارهم وطلولها بيد البلى نهب
وتلفتت عيني فمذ خفيت عني الطلول تلفت القلب

هكذا يعيش الحجر .. هكذا يكتسي حشيشاً وبراعم .. هكذا يصبح الحجر سماء .. والاشياء الصغيرة .. الصغيرة .. التي تمتلكها حبيبتي .. قواريرها .. بيانها .. كتبها .. ثوبها الجديد المنقول عن شجرة دراق مزهرة .. كل هذه الاشياء ماذا تكون لو لم انفخ الروح بها .. لولم اطعمها قصائدي ؟.

وعينا من أحب، هذان المصباحان العسليان اللذان يشتعلان ويشعلان حياتي .. ماذا يكون مصيرهما بغير شعر .. بغير أغنية تسقيهما ؟ .

الزنابق في الربى .. والنجوم في السماء .. والعيون الكبيرة الصاحية كصيف لبناني .. كلها كلمات تنتظر من يقولها .. وما اشقى العيون الكبيرة يوم لاتجد من يقول لها أو يقول عنها شيئاً .

لااريد ان اطيل مشوار النثر معكم ، على دفئه وحنان ابعاده .. لااريد ان أسأل السؤال التقليدي البارد: ماهو الشعر ؟ هذا لايهم أبداً اذ خيرٌ للوردة الجميلة أن لا تكتب مذكراتها. وماذا يضير الوردة اذا جهل الناس تاريخ حياتها ؟ الجميل لا تاريخ له . هو نفسه تاريخ . تاريخ التاريخ اذا شئتم .

اني هنا لاعطيكم شعراً .. لنمزق معاً اسوار الهنيهة المحدودة . لنبني زماناً شعرياً أرحب وأغنى . لنجعل هذا الليل كله يختبئ في دورة حرف .. في اناقة فاصلة .

الزمان الشعري الذي جئنا نعيشه معاً هو أنبل من كل زمان .. أجمل من كل زمان . زمان لا يدخل في حساب الساعة والتقويم ولا يستند الى مطالع الاهلة والنجوم.

الزمان الشعري يصنع نجومه واقماره بيده .

هل احدثكم عن الزمان الشعري ؟ انه زمان غير قياسي ، غير منطقي ، غير عددي . ثوانيه اعرض من دهور .. وهنيهاته اطول من مدات العتابا في بلادنا .

الزمان الشعري الذي الح على وجوده الحاحي على وجودي لا صلة له بزمان الناس ، بمواسمهم ، بفصولهم ، باعيادهم ، بآحادهم ، الاحد الذي الاقي فيه وجه الحبيبة محط زمني تحط عليه الدنيا لتدفأ وتستريح . وهو أحد واحد . أحدي أنا ولا سبيل الى مقارنته باحد اي انسان آخر . لان له شخصيته وهويته . ولانه بعد هذا كله لا يعود ابداً ولو عادت هي . أقول لا يعود ابداً لان الزمان الشعري لا يعود على نفسه كما تجتر الساعات ثوانيها .

الزمان الشعري ، يتصرف بالزمان العددي كما يريد . يخلقه ، يغيره ، يمحوه ، يوقفه بقدرة قادر . يكفي أن نفتح ديوان شعر لنرى كيف تمد زهرة التوليب رأسها في غير موسمها . كيف ينهمر الثلج من اصابع تموز . وتختلج اجنحة السنونو في تشارين . كيف يستيقظ الطيب في مخدع الحبيبة وفي اشيائها التريكة . كيف ينهض التاريخ كله بناره ورماده في صورة وشاح مهجور . أو رسالة نائمة كالجرح المغلق . كيف تتدحرج الامسيات من بؤبؤ عين اسبانية لتغرقك بليل مطعم بضوء .. وضوء مطعم بليل .. حتى لتحار اين يبتدئ الليل .. واين ينتهي النهار ..

وبعد وبعد .. فانا هنا لأعطي شعراً .. وانتم هنا لتعيشوا معي هذا الشعر . لتكتبوه بيدكم .. لتنظموه باسلوبكم .. هل اذهب الى ابعد من هذا فاقول إنني جئت لأسمع شعري باصواتكم انتم .. لأتعرف على حروفي فيكم .

هكذا تكون القراءة الشعرية كما افهمها . فهي ليست ترديداً ببغائياً ، لتجربة ميتة ، وانما هي خلق تجربة جديدة بلحمها ودمها ودفق شرايينها . القراءة الشعرية ليست سوى تكوين زمان شعري جديد جميع ثوانيه تهتز في وقت واحد كانغام سمفونية عظيمة .

اذا اتفقنا على هذه النقطة الصغيرة الكبيرة في مبدأ القراءة الشعرية .. أصبح في امكاننا أن نبدأ ...

نزار قباني

تطلب « الآداب »

في مدينة « فاس »

بمراكش

من مكتبة العلمي

زقاق لهجر ٥١